مقدمة

فوزي أيوب(*)

ما يزال الكتاب المدرسي مصدر المعرفة الأول في العالم العربي رغم التوجه العالمي الكاسح نحو الوسائل الحديثة (انترنت وغيره) للحصول على المعلومات والمعارف المتنوعة. فهذه الوسائل ما تزال بعيدة عن متناول الجماهير العريضة، وهي لا تتيسّر حتى الآن إلا لنخبة اجتماعية-ثقافية محدودة في المجتمع العربي الذي تسوده قناعة راسخة بمكانة الكتاب المدرسي، إن لم نقل بقدسيته المستمدة بشكل أو بآخر من القرآن الكريم.

هذه الأهمية المميّزة للكتاب المدرسي تجعل مضمونه أكثر تأثيراً في المسيرة التعليمية للتلميذ العربي سواء في مجال المعلومات النظرية، أو في مجال المهارات العملية أو في مجال القيم الاجتماعية والإيديولوجيا. إن القارىء العربي يألف الكتاب أكثر مما يألف الكمبيوتر. وقد بيّنت الدراسات أيضاً أن إجابات التلاميذ عن الأسئلة المطروحة في الامتحانات مأخوذة في غالبيتها من الكتب المدرسية.

وبالنظر إلى المكانة الخاصة بالكتاب المدرسي، فقد كان من الطبيعي أن يكون مادة الدراسة والتقويم في الدول العربية وبقية العالم. ولكن أكثر الدراسات العلمية حول الكتاب المدرسي كانت إما منفردة، أو أنها تناولت مادة تعليمية واحدة في الغالب أو مجموعة مواد متقاربة (لغة، اجتماعيات، علوم... الخ). وفي هذا السياق شكلت وقائع مؤتمر بيروت للكتاب المدرسي ودوره خطوة كبيرة وغير مسبوقة في العالم العربي. فقد أسهمت تلك الوقائع في تطوير المضمون التربوي

(*) دكتوراه في علوم التربية، من جامعة السوربون. أستاذ مساعد في كلية التربية في الجامعة اللبنانية، وعضو في الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية.

التنظيمي والمضمون العلمي، والمضمون الإيديولوجي القيمي وصولاً إلى قضايا متفرقة للكتاب المدرسي بوجه عام.

من الناحية التربوية التنظيمية طرح المؤتمرون مسائل مرتبطة بصناعة الكتاب المدرسي وإنتاجه وطباعته وإخراجه، إضافة إلى التنظيم الداخلي لموضوعاته. كما طرحوا مسائل تتعلق بالتشويق والجذب وغيرهما من الطرائق البيداغوجية التي تشد التلميذ إلى مضمون الكتاب، إضافة إلى طرحهم مسألة نوعية العلاقة بين المنهج الدراسي بأهدافه العامة والخاصة، وبين مضمون الكتاب المدرسي.

في هذا الإطار تدخل محاضرة جوناثان كراينر حول دور ونشاطات معهد جورج إيكرت في تطوير الكتاب المدرسي، وخاصة كتب الاجتماعيات، في ألمانيا والعالم. وتدخل في الإطار نفسه دراسة صافي صافي حول النشاطات التربوية الواردة في مقررات العلوم للمرحلة الأساسية في فلسطين، ودراسة تيسير أندراوس التي استهدفت تقييم واقع الوسائل التعليمية المعروضة في كتب الاجتماعيات للمرحلة نفسها في الأردن.

تربوياً أيضاً يبحث جورج نحاس تأثير المقاربة المعرفية النمائية على محتوى الكتاب المدرسي. ويقدم فوزي جمال مداخلة عن مدى مسايرة الكتاب المدرسي الكلاسيكي (الورقي) للتطورات الالكترونية التي سمحت بظهور الكتاب الالكتروني أو الرقمي. كذلك تبحث سميلة الصباغ في دراسة لها عن مدى تمثّل كتب الرياضيات في التعليم الأساسي الأردني للمعايير العالمية في مناهج الرياضيات بعد أن ازدادت الشكوى من تدني مستوى التلميذ الأردني في هذه المادة.

وتتحدث عائشة حرب في بحثها عن كيفية تعاطي مناهج التعليم اللبنانية الجديدة مع موضوع التنشئة المدنية والتربية الوطنية في لبنان. كما يتعرض عمر مسلم في بحثه التربوي لوظيفة النحو العربي في التعليم من جهة ولتبويب المسائل اللغوية في كتب النحو المدرسية من جهة أخرى. ومن ناحية تربوية غالبة، تعرضت ليلى السبعان لأهمية الكتاب المدرسي وللمعايير التي تضمن جودة هذا الكتاب تربوياً، بحيث يحظى كل معيار بما يستحقه من عناية. أخيراً، تظهر غلبة الجانب التربوي اللغوي على بحث حليمة عمايرة التي تعقد مقارنة تتعلق بطريقة عرض القاعدة اللغوية في كتب القواعد الأردنية ثم العمانيّة وبحجم القواعد المطروحة في البلدين.

وبما أن الكتاب المدرسي مضمون علمي أيضاً، فإن الناحية العلمية تفرض

نفسها في وقائع مؤتمر الكتاب المدرسي في بيروت (٢٠٠٦) من خلال البحث الموسّع الذي قدمته أندريه تحومي عن الأبعاد الابستمية (المعرفية) للمضمون العلمي لكتب علوم الحياة في لبنان حتى لا يحصل تشويه للمفاهيم العلمية في هذه الكتب ما يؤثر سلباً على التكوين العلمي للتلاميذ. وتتوزع عملية تقويم المضمون العلمي للكتاب المدرسي، في الواقع، على عدد من الأبحاث والمداخلات التي يغلب الطابع التربوي والإيديولوجي معاً على تصنيفها.

يبرز التوجه الإيديولوجي، وما ينطوي عليه من القيم، بصورة جلية في خمسة أبحاث عرضها أصحابها في مؤتمر الكتاب المدرسي بدءاً بالبحث الذي قدمناه عن التوجهات الإيديولوجية لكتب التاريخ في المملكة العربية السعودية. يلي ذلك المحاضرة التي قدمتها باتريشيا بيدرسون عن القيم التي تبثها كتب الاجتماعيات الأمريكية بين تلاميذ المدارس في الولايات المتحدة الأميركية، والبحث الذي قدمته فاتن محمد يوسف عن تطور عملية التوجيه الإيديولوجي في كتب التاريخ المصرية في عهود الرؤساء جمال عبد الناصر وأنور السادات وحسني مبارك. ففي هذه العهود المتعاقبة تمت إعادة كتابة التاريخ بما يتوافق مع التوجهات السياسية للحاكم.

ومن جانبها قدمت مارلين نصر محاضرة تفصيلية عن موضوع التنشئة السياسية في التعليم الأردني، وعن المعاني الخاصة بالديموقراطية وحقوق الإنسان في هذا التعليم. كذلك يبحث تيسير القيسي في طبيعة القيم الإنسانية الموجودة في كتب اللغة العربية في التعليم الابتدائي في الأردن، ويخلص إلى أن مفاهيم التعاون وطلب العلم والأمانة والجمال هي أكثر القيم تواتراً في تلك الكتب.

وفي كل الأبحاث التي تطرقت إلى الأبعاد الأيديولوجية في الكتاب المدرسي، تساءل الباحثون عما إذا كانت هذه الكتب أداة للتثقيف والتطوير وتكوين الفكر الناقد، أم أنها أداة للتنميط والقولبة الإيديولوجية والجمود الفكري.

وبجانب النواحي التربوية والعلمية والإيديولوجية التي تحدثنا عنها، تضمن مؤتمر الكتاب المدرسي عدداً من المداخلات المتفرقة التي تدخل تحت عنوان «القضايا العامة» للكتاب المدرسي. في هذا الإطار تندرج مداخلة أحمد أوزي التي تطرح مسألة ترجمة الكتاب المدرسي والتي تتجاوز المستوى اللغوي لتطال المستوى الثقافي-الحضاري للشعبين المعنيين بعملية الترجمة.

وامتداداً لإشكالية الترجمة التربوية، يعرض رضا إسماعيل تجربة جيوبروجكتس اللبنانية في تعريب وتكييف مضمون مادتي العلوم والرياضيات كما طورته شركة هاركوت الأميركية بحيث يصبح هذا المضمون ملائماً للتلميذ العربي. وأخيراً، يطرح عصمت القوّاص رؤية أساتذة التعليم الثانوي في لبنان للمناهج والكتب المدرسية الجديدة التي جاءت ثمرة لخطة النهوض، مشيراً إلى الهنات ونقاط الضعف التي رافقت عملية إنتاج وتأليف الكتاب المدرسي اللبناني الجديد.

ولقد كان حرياً بنا ترتيب أجزاء الكتاب بحسب نوعية الأبحاث المشار إليها وطبيعته مضامينها وما يغلب عليها من طابع تربوي أو علمي أو إيديولوجي، ولكن احتراماً منا للطابع الذي اتخذته مجريات مؤتمر الكتاب المدرسي في بيروت، فقد اعتمدنا مبدئياً التبويب الوارد في برنامج المؤتمر بعد إدخال شيء من التعديل فيه بحيث جعلنا وقائعه في ثلاث فئات تشمل المحاضرات أولاً، والأبحاث ثانياً، والندوات وما تضمنته من مداخلات ثالثاً.

والهيئة اللبنانية للعلوم التربوية التي رعت المؤتمر التربوي العربي الأول حول الكتاب المدرسي، إذ يسرّها أن تضيف إلى قائمة منشوراتها العديدة كتاباً جديداً، فإنها تأمل أن يحمل في طياته فائدة مميّزة لأهل التربية والفكر في لبنان بخاصة، وفي العالم العربي بوجه عام.